قال : هل قلتم إن عندكم قولاً ؟

ففهموا أنه يشتهيه ، ولم يروعنه فى هـذا الباب أكثر من هذا . ولم يكن يشتم رجلاً أو يغتابه ، ولم يكن يدع أحداً يغتاب فى مجلسه ، وكان غاية تأنيبه إذا غضب أن يقول :

— « بابا — وكانت تلك كلمته — لماذا أنتم هكذا ؟ »

* * *

تواضع لله ، فأناله الله رفعـة ما أنالها سلطاناً ولا ملـكا ، وانصرف عن الدنيا فأقبلت عليـه الدنيا ، ودر عليـه المال فما مسه ولا مد إليه يداً ، واعتزل الناس ورغب عن الجاه ، فأقبل عليه الناس ، ورغب فيه الجاه ، فما غـيره ولا أقام للجاه وزناً ، وابتعـد عن الحكام ، فتزلف إليه الحكام ، ووضعوا بين أيديه دنياهم فما حاد عن دينه ولا رزأهم دنيا ، ولا كتمهم نصحاً ...

عاش فكانت حياته أعظم حياة ، ومات فكان موته أفخم موت[1] . وكيف لا يكون فخما ، وقد كان الشيخ دولة وحده ، وقد كان تاريخاً ، وقد كان مجموعة كاملة من الفضائل كلها ، تأكل وتشرب وتمشي ؟

* * *

رحمك الله يا أيها الامام العالم العظيم ، ورزق دمشق الصبر على فقدك ، وعوّض منك المسلمين خيراً ....

فقد كنت بدراً للديانة مشرقاً وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

على الطنطاوى

(١) وكنا على أن نصف الجنازة التى مشى فيها مائة وخمسون ألفاً ، ولم تر دمشق مثلها ، فضاق عنها هذا الفصل ، ولعله لا يضيق إن شاء الله عنها فصل آت .

الرسالة فى الصيف

تسهيلاً لوصول الرسالة الى قرائها مدة العطلة تقبل الادارة الاشتراك الشهرى بأربعة قروش عن كل أربعة أعداد تدفع مقدماً

الشعر الوطنى فى الأندلس

للأستاذ عبد الله كنون الحسنى

كثر الشعر الوطني عنـد العرب فى العصر الحديث كثرة عظيمة حتى طغى على غيره من الأغراض الشعرية ، فأصبح لا يكاثره غرض آخر منها . وما ذلك إلا لأن البلاد العربية كلها قد مزّق الاستعمار شملها ، فأصبح أهلها خاضعين للنير الأجنبي يتشوّقون ليوم الحرية تشوق الظمآن للماء البارد ؛ فهم تارة يتغنون بالنصر الباهر الذى يكسبونه فى موقعـة ذلك اليوم ، وتارة يستعرضون مواقف المجد والبطولة فى تاريخهم الأدبى والحربى ، فيثيرون بذلك شعور مواطنيهم للسعى إلى تقريب أمد ذلك اليوم الذى تشرق شمس الحرية فيه على ربوعهم فيعود اليها مافقدته من العز والعظمة ، وتارة يمنون على قومهم تخاذلهم وقعودهم عن حرب العدو المغير على أوطانهم ، لافتين أنظارهم إلى ما يـومونهم من الخسف والعذاب ، وما يبتزونه من أموالهم وخيرات بلادهم

وأخيراً ، وعلى هذا المنوال ، تـكوّن الشعر الوطني فى العربية ، وأصبح فى المقام الأول من أغراضـه الشعرية ، تخلف بذلك المديح الذى كان يحتل هذا المقام من قبل

ونحن إذا رجعنا إلى ما قبل العصر الحـديث من العصور المختلفة وقلبنا تطورات الشعر العربى فى تلك العصور ، لم نجـد للشعر الوطنى ذكراً ولا أثراً بين أقسام الشعر ، ولم نعثر على ما يفيد أن هـذه الظاهرة التى غلبت على الشعر العربى اليوم أمكنها فى عصر من العصور أو طور من الأطوار أن تظهر ، بله أن تغلب على شعر شاعر من العرب أو من غير العرب فيمن نظم بالعربية ، فتجرف غيرها من الظواهر وتـكون هى المسيطرة على كثرة أشعار الشعراء كما هو الحال اليوم . ولذلك لما قال ابن الرومى أبياته المشهورة فى هذا المعنى كانت عنقاءَ مُغرِب الشعر الوطنى ، فتداولتها الألسنة وأصبحت مثلاً يُضرب فى طبيعة حب الناس لأوطانهم ، وتلك الأبيات هى :

ولى وطن آليت ألا أبيعه وألا أرى غيرى له الدهرَ مالـكا
وحبب أوطانَ الرجال إليهمُ مآرب قضّاها الشباب هنالـكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمُ   عهود الصبا فيها ، فحنوا لذالكا

ولا نعني بالشعر الوطني ما كان من قبيل العواطف المجردة عن المعانى المذكورة كهذا الذى يكثر قوله فى بلاد الغربة تشوقاً إلى معاهد الأحباب ومواطن الشباب ، فإن هذا قد زخرت به العربية قديماً وحديثاً ، ولم يخل عصر من أعصارها من لدن الجاهلية إلى الآن عن قوله والمكثرين منه . وما أشعار نجد والحجاز والعقيق ورامة وغيرها إلا بعض من كل ، وقُل من جل ، مما يتمثل فيه هذا اللون من الشعر العاطفي أحسن مثال . ولكن ما نعني هو الشعر الوطني بمعناه الشائع الذى يصطبغ بالفكرة السياسية التى ألمعنا اليها من قبل ؛ وهذا هو الذى يصح القول فيه أنه وليد التجديد الأدبى فى العصر الحديث ، وأنه لم يكن له وجود فى العصور المتقدمة التى ازدهرت فيها الآداب العربية سواء فى شبه الجزيرة نفسها ، أو فيما اصطنع لغتها من البلدان بعد إشراق نور الإسلام فيها — اللهم إلا هذا القطر الأندلسى الذى عقمت الأيام أن تلد مثله فى رقيه وحضارته ، فإنه لا بد أن يستثني من العموم

ذلك أن عرب الأندلس الذين تقدموا الزمن بكثير فى النضوج العلمى لم يجز أن يتخلفوا عنه فى الاحياء الأدبى ، فطلعوا على العالم العربى بالتوشيح الذى لم يستطع التجديد العصرى حتى الآن أن يأتى بما يشبهه من حيث التأثير البليغ فى تحرير الشعر من قيود البحور والقافية الثقيلة ، وقد حاول المشارقة أن يأتوا بشىء فى هذا الصدد فاستظهروا بالدوبيت ، والكان وكان ، والقوما وغيرها ، ولكنه كان شيئاً غريباً عن الذوق العربى غرابة هذه الكلمات فى اللغة العربية ، وكذلك قالوا الشعر الوطني وأكثروا منه وتفننوا فيه ، فانفردوا به عن سائر الشعوب العربية ، وسبقوا اليه الأجيال الحديثة ، وكان إحدى مآثرهم الجليلة فى النهوض بالأدب العربى من وجه عام

ولقد كان باعثهم عليه هو نفس ما بعث إخوانهم اليوم من تكالب دول النصرانية عليهم وإذلالها لهم فى عقر بلادهم ، ولذلك لم يوجد فى عهد الفتح وعهد الأمويين إذ أمرُ العرب مقبلٌ وشملهم جميع ، وإنما وُجد بعد أن ضعف سلطانهم ودالت دولتهم وصاروا يشهدون سقوط ممالكهم الواحدة بعد الأخرى ، وحصون بلادهم فى قبضة العدو فلا ترجع اليهم أبداً ؛ وعرفوا الغاية التى اليها يسيرون ، والمصير الذى منه يقتربون ، فاشتد رعبهم وهلعت قلوبهم ، فبكوا واشتكوا ونظموا الأشعار الوطنية فى تحميس الناس للدفاع عن حقيقتهم والاستماتة فى صون كيانهم ، معرضين بما يؤول اليه أمرهم هناك من الذل والاستكانة وطمس معالم الحضارة والدين

ولقائل أن يقول إن مثل هذه الأحوال قد صارت فى بلاد الشرق ولا سيما فى عهود الحروب الصليبية يوم سلبت من الأمبراطورية العربية أثمن درة فى تاجها : مصر وبلاد الشام ، ومع ذلك فلم تتفتق قرائح الشعراء هناك بالشعر الوطني ولم يظهر منهم من جال فى ذلك الميدان ، فما السبب فى ذلك ؟ لعل للعجمة التى كانت قد بدأت تعقل اللسان العربى فى ذلك العهد من جراء ظهور سلطان الأعجام فى بلاد العرب وضعف الانتاج الأدبى تبعاً لذلك ، تأثيراً مباشراً فى عدم ظهور هذا النوع من الشعر فى بلاد الشرق وإن وجدت البواعث . على أن هذه الأحوال وإن لم تبعث على قول الشعر الوطني كانت السبب فى ظهور فن من فنون الأدب لا يقل خطراً عن الشعر مطلقاً وهو فن القصص ، فإن من المعلوم أن كثيراً من هذه القصص الحماسية كعنترة وسيف بن ذى يزن وغيرها إنما وضعت فى هذا العهد الصليبى ، وفى مصر بالخصوص ، لتضرب للناس أمثلة من الشجاعة العربية يخلق بهم أن يحتذوها فى صد هجمات المغيرين من ذئاب الغرب على بلاد الاسلام ، وهى وإن كانت عامية التأليف تدل على أن الشرق لم يقف واجماً بازاء تلك الحوادث الكبرى وإن لم يهتد إلى الشعر الوطني كما اهتدت اليه الأندلس !

ونقفك الآن على نماذج من الشعر الوطني الأندلسى لترى أنه لا يكاد يتميز عن الشعر المصرى الوطني فى وصف من الأوصاف . ولا ننقل لك شيئاً من قصيدة صالح بن شريف الرندى فى رثاء الأندلس ، وإنما نشير اليها فإنها شهيرة لا تخفى على تلاميذ المدارس الابتدائية الاسلامية !

فانظر إلى هذه القطعة للأديب أبى عبد الله الفازازى يصف فيها الفوضى الفاشية على بلاد الأندلس وتخاذل أهلها عن الدفاع عنها بل وإعانة الأعيان منهم على خرابها ! ويستشف من الغيب المآل الذى تؤول اليه إن دامت على تلك الحال ، فيسأل الله

تعالى أن يلطف بعباده ويرحمهم :

الرُّوم تضربُ في البلادِ وتغنمُ ... والجورُ يأخذُ ما بقي والمغرمُ
والمالُ يورد كله قشتالةً ... والجند يسقط والرعية تسلمُ
وذوو التعيش ليس فيهم مسلمٌ ... إلا معين في الفساد مُسَلَّم
أسفي على تلك البلاد وأهلها ... الله يلطفُ بالجميع ويرحم

وانظر إلى هذه القطعة أيضاً لأبي المطرف بن عميرة يقف فيها موقف اليائس البائس يمتنع حتى عن الاستسقاء لبلاده، ويتساءل في حزن وحقد كيف يمكن أن يدوم وداده لهذه الديار، التي ألقت بطاعتها للأغيار :

زدنا عن النائين عن أوطانهم ... وإن اشتركنا في الصبابة والجوى
أنا وجدناهم قد استسقوا لها ... من بعد ما شطَّت بهم عنها النوى
ويصدنا عن ذاك في أوطاننا ... مع حبها، الشركُ الذي فيها ثوى
حسناء طاعتها استقامت بعدنا ... لعدونا، أفيستقيم لها الهوى ؟

وله أيضاً يشير إلى انتقاله من بلد إلى بلد لاستيلاء العدو على البلاد واحدة فواحدة، من قصيدة طويلة :

كفى حزناً أنَّا كأهل مُحَصَّبٍ ... بكل طريق قد نفرنا وننفر

واستمع إلى هذين البيتين اللذين قيلا في أهل بلنسية، وما أكثر انطباقهما علينا اليوم :

لبس الحديدَ إلى الوغى ولبستمُ ... حلل الحرير عليكمو ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها ... لولم يكن ببطّرنة ما كانا !..

ولابن الأبار من قصيدة طويلة يخاطب بها السلطان أبا زكريا ابن أبي جعفر صاحب أفريقية :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جَزَراً ... للحادثات وأمسى جدّها تعسا
في كل شارقة إلمام بارقة ... يعود مأتمها عند العدا عُرُسا
يا للمساجد عادت للعدا بِيَعاً ... وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارساً للمثاني أصبحت دُرُسا

وقصائد الاستنجاد بملوك العدوة كثيرة، يستدعي إيرادُها أو الاشارة اليها فصولاً، ولكن لا بأس بإيراد شيء من قصيدة في هذا المعنى لابراهيم بن سهل الاسرائيلي، وهي كافية للدلالة على قوة العاطفة الوطنية عند أهل الأندلس، لأن هذا الجنس من الناس ملموزٌ بضعف هذه العاطفة، فصدور هذه القصيدة عن فرد منه دليل على ما قلنا :

ورْداً فضمونٌ نجاح المصدر ... هي عزة الدنيا وفوز المحشر
يا معشر العرب الذين توارثوا ... شيم الحمية كابراً عن أكبرَ
إن الآله قد اشترى أرواحكم ... بيعوا ! وهنيكم وفاء المشترى
أنتم أحقُّ بنصر دين نبيكم ... وبكم تمهد في قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا ... ذاك البناء بكل لدن أسمر
لكم عزائم لو ركبتم بعضها ... أغنتكم عن كل طرف مضمر
الكفر ممتد المطامع والمدى ... متمسك بذناب عيش أغبر
والخيل تضجر في المرابط غيرة ... ألاّ تجوس حريم رهط الأصفر
كم نكروا من معلم، كم دمّروا ... من معشر، كم غيروا من مشعر !
كم أبطلوا سنن النبي وعطلوا ... من حلية التوحيد صهوة منبر !
أين الحفائظ مالها لم تنبعث ؟ ... أين العزائم مالها لا تنبرى ؟
أيهز منكم فارس في كفه ... سيفاً ودين محمد لم ينصر ؟

ونختم هذه الكلمة بتنبيه قومنا إلى تاريخ هذه الفاجعة العظيمة فان فيها عبرة لمن يعتبر

(طنجة) عبد الله كنون الحسني

ظهر حديثاً كتاب :

في أصول الأدب

صفحات من الأدب الحي
والآراء الجديدة

بقلم

احمد حسن الزيات

يطلب من إدارة مجلة الرسالة ٣٢ شارع البدولي — القاهرة

وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً خلاف أجرة البريد